ثانيًا : متغيــرات

١- ثقافتنا العربية فى مفترق الطرق

٢- مسئولية البناء فى المشروع الثقافى العربى

٣- توجهات فى مؤسسات الثقافة العربية

٤- العرب بين ثقافة التغيير وتغيير الثقافة

٥- ثقافة التغيير ومداخل الإصلاح

٦- بين العروبية والأفريقية حوار لا ينقطع

٧- أسئلة وإجابات مفتوحة

obeikandl.com

obeikandl.com

١

ثقافتنا العربية فى مفترق الطـرق

فى مؤتمر أقل ما يوصف به أنه تاريخى واقعى ينطلق من الحيدة والموضوعية انطلاقه من الجدية والتعددية، ومع القراءة الأمنية للواقع العربي، بعيدًا عن التهويل والمبالغة، أو الغفلة والتهوين كانت حوارات مؤتمر العرب بين ثقافة التغيير وتغيير الثقافة بمراكش من خلال مؤسسة الفكر العربي؛ حيث التقى المفكرون من كل الاتجاهات العربية، والأجنبية، الوطنية، والقومية، الدينية والإعلامية لتقول كلمتها فى أخطر فترات التحول التاريخى للأمة، قصدًا إلى الإفادة من كل الاجتهادات فى تحليل واقع الأمة، وتأمل ما يحيط بها من متغيرات، وما يحتمل أن تنهض به فى سبيل النهوض من كبوتها العارضة.

التقى المثقفون حول تشخيص نقائص الواقع العربى وكشف تناقضاته، محاولين البحث عن حلول جذرية لمشكلاته، تبدأ من الاعتراف بالأخطاء ونقد الذات، وتنتهى عند نُبل المقاصد وسلامة النوايا الدافعة إلى تواصل البحث عن الحلول بعيدا عن الانهزامية أوالاستكانة، وبمنأى عن السلبية أو الانقسام على الذات، واندفاعًا إلى إعادة بناء الثقة فى ثقافتنا العربية، مع احترام جسور الفكر والوعى فى علاقتها بالآخر أخذًا وعطاء، تأثرًا بما اكتسبته من قيم الإنسانية والعمق والرحابة والموسوعية على مدار حقب التاريخ، وتصحيحًا لمنهج الفكر فى معالجة القضايا الفكرية المعاصرة دون جناية على الثقافة القومية.

اتسم المؤتمر بجدية الملاحظات، مع جدية البحث عن الحلول، حيث تم طرح

عديد من المشروعات البناءة، بما لها من بُعد مجتمعي، وآخر قومي، وثالث تراثي، ورابع مستقبلي، وخامس حول دراسة المشترك الإنساني؛ وجميعها تضع الثقافة العربية موضع المساءلة الجادة، والمراجعة الدقيقة، كما تضعها فى موقع التحدى من خلال وجوب تجديد الخطاب التربوى لأبنائها فى سياق وجوب الاندفاع إلى التنافسية والتحديث، ثم ضرورة الانخراط فى خضم مشكلات المرحلة، بما تتطلبه منهم من التفوق والابتكار، والتميُّز، مع التحول الجاد والمرحلى إلى إنتاج المعرفة والفكر، وإيقاف تيار التواكل والاستيراد والاستهلاك الذى أثقل كاهل شعوب الأمة، وجنى على مستوى الوعى القومى لدى أجيالها.

وضع المؤتمر التصورات والرؤى العلمية لطبيعة الخطاب الثقافى متعدد الأبعاد من خلال برنامج عمل، يتحول به إلى خطاب الفعل والإنجاز، بدلا من القول والزعم والشعار والتوقُّع، كما تحول بالخطاب الفكرى عبر شعابه وأوديته المتنوعة بين التربوى والتعليمى إلى الشبابى والاعلامى والدينى والقيمي، إلى دراسة مرجعيات الفكر، ومستويات التغيير، مع احترام المقدسات والثوابت، إلى تأمل جوهر المشروع القومى الواعد؛ لإعادة قراءة التراث تحليلًا وتفسيرا ونقدا ومراجعة وحوارًا وجدلًا، إلى محاولة ترجمته للأجيال الجديدة تبسيطًا وتيسيرًا لا تسطيحًا ولا تهميشًا، ثم محاولة التوسع فى سياق حركة الترجمة ذاتها من العربية وإليها، لعلها تستعيد تاريخ تراثها الأصيل من لدن دار الحكمة وانفتاح العقل العربى لدى الرشيد والمأمون.

اندفع حوار المؤتمر فى اتجاه موضوعى يعكس كثيرًا من صيغ التخوُّف فى ظل الأناة فى طرح صيغ المبادرة، مع الجسارة فى اقتراح الحلول، وبين التخوف والجسارة مساحات متباينة من التفكير الجمعى المحكوم- أحيانًا -بسلامة المقاصد وحسن النوايا وأخرى بغير ذلك؛ الأمر الذى يدفعنا دفعًا إلى طرح طموح أكبر فى نشر خلاصة حصاد المؤتمر عبر المؤسسات العلمية العربية والدولية من الجامعات والهيئات الثقافية، إلى تزوير مكاتبنا فى الخارج بكل تخصصاتها الثقافية والإعلامية، إلى وجوب مد جسور التعاون

والتلاقى والتنسيق بين عطاء المؤسسة الفنية، التى استطاعت خلال ثلاث سنوات من عطائها الجاد أن تضع الأصول، وتؤسس القواعد لبناء خطة قومية واعية وواعدة، معيارها احترام دوافع التغيير والإصلاح من الداخل، مع ضرورة شموليته للإيقاع المجتمعي، واحترام مرجعيات التغيير، ودعم الهاجس الوطنى نحو مناهج الحوار والتفكير، وتجديد صيغ الخطاب وتحديد المصطلح والمفاهيم، إلى احترام مكوِّنات الحياة العربية بين رصد واقعها وتسجيل طموحاتها ورؤاها، بعيدًا عن التبعية أو الانشطار على الذات، واتجاهًا إلى تحقيق التكامل المرتقب من خلال المقتدر العربى وتضافر جهوده مع المستضعف العربى والوفاء باحتياجاته؛ الأمر الذى يمكن أن يقود إلى طرح جديد يدفع الغرب إلى احترامنا؛ خاصة إذا تذكرنا من حين إلى آخر دور الحضارة العربية فى تطور الحضارة الأوربية فى عصر النهضة، لا من قبيل المباهاة ولا النرجسية أو الاستعلاء، بل من حيث القصد إلى تعميق الثقة فى الذات، وتجاوز الإيحاء بالقصور أوالعجز عن الإصلاح، وهو الإيحاء الداعى ذاته إلى الإفادة من تجارب الشعوب المتقدمة على طريقة اليابان والصين وغيرهما ممن انتصروا على صدمة الحداثة، فاستطاعوا تغيير الواقع، وتحقيق التقدم، دون انزعاج من منطق التغيير وصور التطوير والتحديث، مما تفترضه أعباء الفترة، وتطرحه متطلبات المرحلة من بناء ثقافة الشجاعة والشفافية مقابل ثقافة الخوف والالتواء والغموض، وبناء فلسفة التوازن بين الحقوق والواجبات، وتحليل طبائع مفاهيم المواطنة ورموز الانتماء، وتجاوز ثقافة التبجيل والتمجيد إلى احترام الذات والآخر بقياس التوازن والتكافؤ والندية.

إن الإفادة من جهود المؤتمر تمتد – حقيقة- إلى وجوب رسم خطط مستقبلية تشارك فى طرح الرؤية حول ظروف الأمة وأعبائها، ولعل من موضوعات المرحلة ـ أيضًا ـ قضية التراث العربى ومشكلة اللغة بما يستحقه الأمر من تنسيق الجهود بين هذه المؤسسة وبين بقية الهيئات الثقافية من المجالس القومية المتخصصة، إلى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، والمجلس الأعلى للثقافة، إلى جمعية لسان العرب، وجمعية حماة العربية، إلى جهود رابطة الجامعات الإسلامية، وجمعية الدعوة

الإسلامية العالمية، وغيرها من الأقسام العلمية المتخصصة والكليات والمعاهد المعنية بقضايا الأمة والوطن واللغة والهوية والتكامل العربي.

وهكذا تتكامل جهود الجهات القادرة على الإصلاح بشكل لا يقبل التراجع ولا التردد من أمة كانت قوية، إذ طالما قهرت الاستعمار على مدار توالى حقب التاريخ، وما زال فيها الخير إلى يوم القيامة ما وُجد من أبنائها من يوظف أمواله فى خدمة قضايا الفكر والثقافة، فإذا به يحمل رسالة قومية خالصة لا ينتظر عليها جزاءً ولا شكورًا، إلا ما يبقى من حقه من وجوب امتداد العدوى عبر محاولات بقية المؤسسات فى أن تنهج نهجه حيث تتجانس الأفكار والرؤى.. لعلنا ننطلق من مشروع قومى كبير ينتصف للأمة، فيمنحها حقها التاريخى المشروع، ويسهم فى صناعة طوق النجاة على أيدى أبنائها الأوفياء، وعندئذ تحدد الثقافة العربية طريقها إلى الخروج من التيه إلى مسار النهضة.

obeikandl.com

٢

مسئولية البناء فى المشروع الثقافى العربي

من المؤكد أن المسافة بين البناء والهدم تتباعد بقدر تباعد الفواصل بين الشمال والجنوب، واتساع المساحة بين التقدم والتخلف؛ الأمر الذى يتطلب نمطًا خاصًّا من معالجة القضايا الفكرية بقدر من الشفافية والجسارة، وبمنأى عن المزايدة والمغالطة.

ولعل الشاهد على ذلك ما شهدته مدينة مراكش المغربية من اجتماع أقطاب الفكر والثقافة من المفكرين العرب والأجانب، لمناقشة قضية العرب بين ثقافة التغيير وتغيير الثقافة، حيث تعددت الأصوات، وبرزت كل الاتجاهات دون حَجر على حرية، أو فكر، ودون إيقاف لأى من تياراته أيًّا كانت درجة الصخب أو الضجيج، أو افتعال معارك فى غير معترك فى بعض الأحيان.

من هنا تحددت مستويات البناء وتجذرت أسسه فى شكل المؤتمر، وفى ومضامينه الكبرى، مما يمكن الإشارة إلى جوانب منه فى ظل مجموعة اعتبارات وخواطر، منها:

١- أن المؤتمر طرح بُعدًا تراثيا أصيلًا حول وجوب إحياء ثقافتنا وتراثنا العربى بشكل منهجى عصرى متوازن ومتجدد، بما يحفظ له دوره التاريخى فى بناء النهضة الأوربية، ولعله يسترد بذلك بعضًا من الدّين الذى منحه للآخر قبل عصور الاستعمار واحتلال الأرض.

٢- وجوب الاعتراف بحق الاعتزاز برموزنا الثقافية، التى شهدتها حقب

التاريخ، بدءًا من هارون الرشيد والمأمون، ودار الحكمة، وحركة الترجمة والتأليف، إلى التواصل التاريخى الذى أسس لمناهج التجديد والابتكار، دون توقف أو انحسار من لدن الغزالى فى فترة التأزُّم الفكرى التى انطلق فيها يصدع بإحياء علوم الدين، إلى علماء الاستنارة فى القرنين التاسع عشر والعشرين من أصوات أقطاب الفكر على طريقة الأفغانى ورشيد رضا ومحمد عبده وتلاميذهم الأوفياء.

استمر مشهد البناء قائمًا فى تجديد الفكر العربي، ودخلت المؤسسات المدينة والمجتمع المدنى بكل ثقله فى المعترك القومى والإنسانى دفاعًا عن حقه فى الاستمرارية، والمشاركة، أملًا فى بناء مشروع قومى يحقق الهاجس المستقبلى لفكر الأمة، ويضمن نجاح الرهان على تجديد دورها عبر ثقافة الفعل والإنجاز، وتعزيز دراسة المشترك الإنسانى مدخلا إلى الحوار دون صدام أو صراع.

كان تعزيز ثقافة الاعتراف، ورفض ثقافة الجحود مدخلًا جادًا لضمان الانفتاح والتواصل، انطلاقًا من تعدد القراءات بين ليبرالية وإسلامية وقومية ووطنية دون وقوع فى دائرة الفوضى الذهنية، ودون اقتصار على الثقافة النخبوية بقدر الانطلاق إلى تأسيس الثقافة المجتمعية الهادفة إلى إدراك مفاهيم الديمقراطية والتنمية والعدالة وتعزيز منظومة الجدل بين معطيات التجديد الحضارى وإحياء الموروث العربى بعيدا عن السيطرة والهيمنة، وبمنأى عن التباهى والاستعلاء من جانب، أو التماهى فى الآخر بين دهشة وانبهار من جانب ثان.

بدا الإفراز الثقافى جيدًا وشفافًا حيث خرج عن دائرة التوصيات والتصريحات إلى منطقة التأصيل للفكر الجمعى فى طرح المساءلة والبحث عن الإجابات، وفى دعم ظواهر التحليل والنقد وتجاوز الجمود والقصور والاسترخاء الفكري، فبدا التوجه صحيحًا وجادًّا فى تجاوز مسالة الجزر المتباعدة والمصطنعة فى الحياة العربية إلى إقامة جسور التعاون والتكامل، اتساقًا بما تشهده الساحة العالمية من تكتلات، آتت ثمارها الطيبة فى تحقيق التقدم لشعوبها؛ الأمر الذى يستدعى الإفادة من تجارب الآخر وتجاربنا معه على مدار حركة التاريخ ومتطلب المعاصرة على حد سواء.

٣

توجهات فى مؤسسات الثقافة العربية

من الظواهر الطيبة ما يظهر – أحيانًا – فى تلاقى العلم مع المال فى وطننا العربي، شاخصًا – أحيانًا – فى تشجيع البحث العلمي، ودفع العلماء إلى التنافسية والإجادة، وهو مطلب عصرى مهم وضرورى فى سبيل تحقيق نهضة حقيقية للثقافة العربية.

ولكن الأهم والأخطر فى هذا السياق، أن نجد مؤسسة للفكر العربى تتبنى قراءة واقعه، ودراسة همومه ومشكلاته، وتناقش أبعاده وفلسفاته، وتحاول استجلاء حقائقه تاريخًا وحاضرًا ومستقبلًا، وتطرح الرؤى والمعالجات للبعد المستقبلى من خلال تعددية فكرية ملموسة بين كل المدارس والاتجاهات من وسطية ويمين ويسار، دون حجر على رأي، أو مؤاخذة على رؤية، أو تعطيل لاتجاه، أو تحيُّز لنمط، فبدت المؤسسة أشبه ما تكون بدار الحكمة، التى أسسها الرشيد فى بغداد (دار السلام) وطوَّرها ابنه المأمون فدفعت بالحضارة العربية إلى أرقى درجات التطور عبر تدوين علوم الأوائل جمعًا وتصنيفا، وتأليفا، وشرحا، وتحليلا، وإلى جوارها كان قلم الترجمة من العربية وإليها عبر اللغات الهندية واليونانية والفارسية والسريانية.

هذه الازدواجية التى تنم عن طبيعة ثقافتنا العربية من حيث احترام المشترك الثقافى بين شعوب الأرض، واحترام المشترك الإنسانى بين البشر إيمانا منها بتلاقى الوحدة والتنوع دون تناقضات، ومن ثم كان انتشارها بين المشرق والمغرب من

خلال التعرب الفكرى الذى تجاهل طبيعة الانتماءات العنصرية بين عربى وغيره تجاهله لأية انتماءات دينية أومذهبية؛ فكانت الثقافة رحبة واسعة الآفاق، فتحت النوافذ والأبواب دون حجر أو استعلاء، وقبلت التعددية دون احتكار أو احتقار؛ ومن ثم بدت – فى أبرز خصائصها- موسوعية عميقة متدفقة قادرة على تحقيق التواصل والبقاء، على الرغم من المحن التى حاولت النيل منها عبر حملات الاستعمار والاحتلال منذ جحافل التتار، إلى دعاة الصليبية ثم الاستعمار الغربى فى القرنين الماضيين.

يبدو إنجاز مؤسسة الفكر العربى دافعًا لاستدعاء كل هذه التداعيات حين يلتقى فى إطارها أكثر من مائتى عضو لحضور مؤتمر يناقش قضية العرب بين ثقافة التغيير وتغيير الثقافة؛ حيث استشعرت المؤسسة خطر المرحلة فحرصت على تبنى قضية الفكر العربى الذى اتخذته شعارًا لها، لتطرح ما يمكن معالجته من قضايا الأمة ومشكلاتها، بدءًا من طرح السؤال البدهى لماذا ثقافة التغيير؟ وانتقالًا إلى مشاهد الإصلاح المتوقع سياسيًّا وتربويًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا وتعليميًّا وإعلاميًّا وقيميًّا، من خلال جلسات وحوارات ومداخلات ومناقشات كان للوفد المصرى فيها أثر واضح من خلال حضور متميز للسيد عمرو موسى الأمين العام للجامعة العربية، والدكتور بطرس بطرس غالي، والدكتور أحمد كمال أبو المجد، والسيد أحمد ماهر، والسيد على ماهر، والسفير أشرف زعزع إلى جانب حضور مواكب العلماء والمفكرين من أمثال فهمى هويدى وحسن نافعة وأحمد أبو زيد وحسن وجيه والإعلاميين من أمثال سناء البيسى وجمال الشاعر.

كانت الحوارات مثمرة وبناءة؛ سواء منها أوراق العمل المقدمة، أو ما بُنى عليها من مناقشات تميَّزت بالشفافية والوضوح والاجتهاد، حيث التقى المصريون بأشقائهم من المغاربة والتوانسة والجزائريين والخليجيين والسعوديين والسوريين واللبنانيين والأردنيين واليمنيين، فتحول اللقاء الثقافى إلى عرس عربى فى جامعة عربية موحدة وبيت عربى موحد.. تباينت هناك الرؤى وتنوّعت الأفكار، فاختلف

القوم واتفقوا، واجتهدوا، وأضافوا، وفكروا بأصوات عالية على أسس علمية جادة، واستمعوا للسفراء الأجانب والمعنيين بالشأن العربى وقضايا الأمة، وكان الحصاد إيجابيًّا بكل المقاييس، ولكنه يفتح المجال للتساؤل: ألا يمكن أن تتعاون مؤسسات الثقافة العربية فى مثل هذا المنعطف التاريخى المهم لتتكاتف الجهود، وتتلاقى الأفكار نحو بنية ثقافية شاملة، يتم بينها التبادل والمشاركة على غرار ما بدأته تلك المؤسسة الجادة التى ما زالت تحبو فى عامها الثالث، مما يبعث الأمل فى توقع كثير من إنجازاتها المرحلية، كلما عمقت توجهها إلى تشخيص الداء العربى مع جدية البحث عن الدواء؟! كلنا نأمل ذلك.

obeikandl.com

٤

العرب بين ثقافة التغيير وتغيير الثقافة

من المؤكد أن المؤتمر قد عكس بصدق وواقعية طبيعة التوجُّهات الجادة لمؤسسة الفكر العربي، من حيث أهمية الموضوعات المطروحة للدراسة والمناقشة والحوار؛ مما يدل على أصالة المنهج ودقة الانتقاء، مما يمكن تلمس نتائجه فى عدة مسائل :

أولها: التعددية الفكرية التى أبرزتها منطلقات المؤتمر ومحاوره، وأوراق العمل المقدمة، إلى جانب تعددية صيغ المشاركة بين عرب وأجانب، عبر تيارات الفكر المتنوعة، حيث بدا الصالح العام أساسًا للرؤية، وبدت حرية التعبير معيارية الطرح والمناقشة وصناعة المداخلات الجادة.

ثانيها: محاولة تشخيص الحالة العربية بواقعية وقراءة سلبيات الواقع بموضوعية، إلى محاولات الانطلاق إلى البحث عن حلول جادة تنهض على أساس من مراجعة الذات، مساءلة الواقع، وبناء جسور المستقبل إلى جانب جسور العلاقة مع الآخر.

ثالثها: ما تم طرحه من مشروعات مستقبلية بناءة، تعددت أبعادها القومية والمجتمعية، مع التنبُّه إلى البحث فى منطقة المشترك الثقافى والإنسانى بين الشعوب؛ مما يعزز طبائع العلاقات الإنسانية فى أفضل صورها عمقًا ورحابة واتساعًا.

رابعها: دراسة البعد التراثى بين الإحياء والتجديد والابتكار والإضافة والتبسيط أمام النشء دون تسطيح أو تهميش، وبما لا ينتهى إلى نمط من القطيعة

المعرفية، التى يجب الخلاص من هاجس توقعها على أرضية الفكر العربي.

خامسها: التركيز على وجوب إنتاج الثقافة والمعرفة، مع احترام القراءات المنهجية، والبحث فى المناسب والمتاح والممكن عبر آليات العمل الثقافى الجاد، بما يؤسس للتطوير الحقيقى فى منظومة الوعى العربي، ويؤصل لثقافة التغيير على أسس صحيحة بين التراث والمعاصرة تجديدًا وتأصيلًا.

سادسها: الانتقال من ضغوط الواقع إلى صناعة مجموعة من الثقافات المطلوبة لتعديل موازين الأمور، ومنها: ثقافة المساءلة ونقد الذات، ثقافة الوفاء والانتماء مقابل تفشى الجحود والانقطاع، ثقافة الثقة بالنفس والموروث وتعظيم رموز المواطنة والإيقاع القومى مقابل الاغتراب وحالات الفوضى، والانشطار الإنساني، ثقافة التطوع والعمل المجتمعى وتغليب الصالح العام مقابل الإفراط فى الأنانية والذاتية، ثم ثقافة احترام التبادلية مع الآخر من باب التثاقف والتفاعل والتلاقي، وأخيرًا ثقافة الفعل والإنجاز، وتخطى ثقافة القول والشعارات والمزايدات والتبارى فى الأطر النظرية.

سابعها: اكتشاف طبائع التحديات، وتقدير مرجعيات الفكر وحدود المتاح فى منظومة التغيير، دون اختراق للثوابت أو مساس بالأصول ودون صناعة العدوان على المقدسات، أو طمس الهوية والكيانات القومية تحت أى من ضغوط الآخر، مع رفض تام لمنطق التبعية، أو قبول الإصلاح من الخارج.

ثامنها: يمتد الأمل فى مزيد من عطاء المؤسسة تجاه دراسة وتحليل أزمة اللغة العربية والتراث؛ حتى تحتل المساحة اللائقة به وبها فى ظل خريطة العمل القومى الذى تتولاه باقتدار، كما يتوقع منها الكثير فى ظل مشروعات الترجمة، وتأصيل النموذج العربى الراقى على غرار ما تبنته دار الحكمة والرشيد منذ الأعصر العباسية فى فترة ازدهار حركة التدوين.

تاسعها: كما يظل الأمل واردًا حول دراسة مشروع تحليل الخطاب العربى المرحلى

بكل أبعاده وصوره: التربوية، والشبابية، والإعلامية والدينية، وضمان الحد الأمثل من أسس التواصل المعرفى دخولًا إلى بنية نموذج عربى مشترك.

عاشرها: وجوب التكامل والتفاعل بين إنجازات المؤسسات العربية، التى استطاعت أن تنقل المال إلى الثقافة والفكر، وبدا من المتوقع أن تصنع الخُطى الأول فى التكامل العربى من حيث المشاركة والتبادل على غرار رابطة الجامعات الإسلامية، ومؤسسة البابطين، ومؤسسة يمانى الخيرية، والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، والمجلس الأعلى للثقافة، وغيرها من الجهات المعنية بالهم الثقافى العربي.

تحية لكل جهد خلاَّق يتبنى قضية الثقافة العربية فى ظل التحديات المعاصرة، وتوجد لها مساحة مناسبة على خريطة المتغير العالمي.

obeikandl.com

٥

ثقافة التغيير ومداخل الإصلاح

لم يأت عنوان هذا المؤتمر المهم من قبيل المصادفة، ولا كان مجرد وليد التجانس اللغوى بين مفردات العنوان وتراكيبه، بقدر ما جاء رد فعل لمجموعة من الاعتبارات وصور التخوُّف التى انطلقت منها أمانة مؤسسة الفكر العربي، نحو السرعة فى إنجاز ما يمكن إنجازه أمام تحديات المرحلة وضغوط الفترة، حول ثقافة الأمة وصورتها الحضارية من كل اتجاه.

لم يأت مؤتمر إصلاح التعليم بمكتبة الإسكندرية من فراغ – حين تزامن – تقريبًا – مع هذا المؤتمر – بقدر ما انطلق من صحة الدوافع والمقاصد الهادفة إلى قراءة واقع التعليم بكل مراحله، وعبر كل سلبياته التى انتهت إلى صور من الانحدار والتدنى باتت فى حاجة لا إلى تشخيص الحالة، فقد تم تشخيصها من أكبر مثقف عربى إلى رجل الشارع، وأصبح المطلوب البحث عن صيغ العلاج الناجع والفاعل، بما ينقلنا من ثقافة التوصيات والأقوال والصراخ والضجيج إلى على ثقافة الفعل وتفعيل المنهج والإنجاز، بعيدًا عن المزايدة والشعار فى ظل حالة الحماس التى سرعان ما يصيبها الخمول والهدوء، إذا لم تُفعل النتائج وتُعظم الأدوار.

وفى كل مؤتمر تجد أصوات البناء وإلى جوارها تظهر بعض أصوات الهدم، ولكن – لحسن الحظ – تظل أصوات البناء أفضل وأقوى، وبين السطور تتراءى لك أصوات الهدم تابعة فى القاعات، ربما تحاول توجيه الضربة إلى ثقافتنا العربية، أو برامجنا التعليمية، من خلال قفاز حريرى على غرار ما تجلى فى مؤتمر المغرب من دفاع

أحد المثقفين العرب عن قناة الحرة والمطالبة بالتغيير من الخارج، وكأن امتنا تحتاج إلى الوخز والركل من جانب الآخر الذى قدمت له عبر مراحل التاريخ أرقى رموز الفكر الإنسان فى كل فروع المعرفة والعلوم. وإذا بالمثقف العربى يتحول إلى خصم لدود لقومه، وعدو حقيقى لثقافته متجاهلًا كل صور الاستعمار الجديد، التى آثرت انتهاك كل حقوق الإنسان جهارًا نهارًا تحت مظلة التحرير الزائف، والعدوان الصريح على الأهل والأرض والعرض والوطن.

صحيح أن أصوات الحق قد تعالت لإفحام أصوات الباطل، وهذا مهم فى قبول التعددية الجدلية، ولكن المؤسف أن تغيب المرجعية الآمنة وسلامة المقصد، وأن تنطلق أداة خبث النوايا ورداءة الفكر إلى التدمير، وهو ما لا يقع فيه من أبناء الأمة إلا الدخيل أو العميل الذى لا يؤمَنُ جانبه، ومع هذا فلا بأس من إنجاح محاولات الإصلاح من خلال ما يراه العميل وما يسمعه. وقس على هذا ما ورد فى ختام مؤتمر إصلاح التعليم من انحراف فكري، جنح إلى ترشيح وجوب التعليم بالعامية من باب السهولة والوضوح، وكأن الجبل قد تمخض ليضع مؤامرة فى نهاية المطاف، لأنه لا يدرى ما وراء دعواه من تداعيات، أوربما لا يدرك شيئا عما يدعو إليه، وينطلق منه سوى إمكانة المخالفة للتيار من باب الرغبة فى الظهور، أو إثبات الذات بأرخص الأثمان، حتى لو جاء على تاريخ أمته وبناء مستقبلها.

إلى هذا الحـد يظل الكلام فى المطلق والعام مباحًا أمام الأمم المتقدمة التى تحاول إحياء لغة موليير، ونحن نتنادى بإماتة لغة عاشت أكثر من خمسة عشر قرنا من الزمان، عبر كل ساحات الفكر الإنسانى والعلم والإبداع والمعرفة، تنشر النور فى كل أطراف المعمورة من شرق وغرب.

إن احترام الذات لا يتجزأ عن احترام الفكر والثقافة واحترام الثوابت والأصول الثقافية لكل أمة، والانطلاق الفعلى من استشعار الصالح العام قبل إطلاق النعرات الفردية الواقعة فى دائرة الانهزام أو السلبية، أو اصطناع خصومة فى غير معترك مما يعكر صفو العطاء فى مثل هذه المؤتمرات التى ترمى – أساسًا – إلى البحث العلمى

والحوار الجاد حول قضايا الأمة وهموم الفكر ومشكلات الثقافة وآليات الإصلاح.

صحيح أن هذه الأصوات تذهب سُدىً، ولا تستحق الرد أو مجرد الإشارة، ولكن يبقى النصح واجبًا لأن نتجه جميعًا إلى البناء بديلًا عن الهدم، وأن ننطلق من المنهجية بدلًا من الفوضى والانطباعية، وأن نقدر عواقب ما نقول قبل أن نقول، ليس من باب الخوف من رقيب إلا الضمير ومراقبة الله وصالح الوطن والأمة.

إن مطلب التغيير الطوعى الداخلى يبعث على الأمل فى حدوثه بشرط توافر الإرادة الفاعلة للإنجاز، وخلق ثقافة الحوار والتكامل المؤسسى وبناء الجسور الثقافية، واحترام المشترك النوعى والخصوصية مع تعزيز مرجعيات التغيير وآلياته دون مبالغة أو مغالطات.

فهل آن أن نسقط من حساباتنا المناطق الهزلية فى المؤتمرات، إلا أن تظل زبدا يذهب جفاء ليبقى ما ينفع الناس ماكثًا فى الأرض، وهو أفضل قانون لبقاء ما هو صالح وحق، وفناء كل ما هو باطل وهراء !!

obeikandl.com

٦

بين العروبية والإفريقية
"حـــوار لا ينقطـــع"

عظيم ورائع أن نتحدث عن العروبة والإفريقية فى هذا الزمان الصعب، وهو يشهد انتحار منظومة القيم والمثل، وموت كثير من المبادئ والأصول، وسقوط الأقنعة عن دعاة حقوق الإنسان وهم يجدون متعة فى قهره وإذلاله عبر أسره أو سلب حريته، أو امتهان كرامته، أو سلب أرضه أو وطنه والمساس بعرضه وشرفه !

وليس عظيمًا ولا رائعًا أن نتحدث عن قضايا لا نعرف لها هوية، ولا نستطيع تشخيص ملامحها وأبعادها ومساحاتها فى مرحلة من الضبابية والغموض، وعصر عاد بالإنسان إلى قانون الغاب والقمع والإرهاب تحت مظلة هيمنة الأقوياء وتسلط الجبابرة، وتخاذل المستضعفين والقناعة بالتبعية والانكسار!

ولكن الأمل يظل موجودًا فى ضرورة التعايش مع أمرين أحلاهما مُرٌّ: فهل من الأفضل أن نؤثر الصمت إزاء واقع مترهل، وصور مهترئة متهالكة، ومشاهد من التشرذم والتمزق والتشتت والانشطار؟ أم نحاول إقالة الأمة من عثرتها، وإفاقتها من سباتها، وانتزاعها من كبوتها التى نتمنى أن تكون عارضة على غرار ما شهدته من كبوات عبر حقب التاريخ، تجاوزتها بجدارة، وظل الاحتلال بمنطق العبقرى العظيم جمال حمدان جملة اعتراضية فى تاريخ الشعوب.

يبدو هذا المدخل الدرامى ضرورة إذا توجهنا شطر الحقيقة فى قراءة الواقع بعيدًا عن تجميله، أو تزيينه، أو تزييفه، أو تشويه معطياته، أو المزايدة عليه، أو المغالطة فى الاستنتاج، أو الاستخفاف بإملاءاته أيًّا كانت مرارتها.

فالحق أن مطلب التنمية والسلام هو مطلب حضارى راق، إذا لم يتحول إلى شعار براق، ومفردات فضفاضة تحكى فصولًا من الأمل والطموح، وتتجاوز حقيقة ما هو قائم على الأرض العربية والإفريقية بما يعيق مسيرة التنمية البشرية والاجتماعية والاقتصادية والقيمية والعلمية فى ركاب عالم يتقدم كل يوم، ويقفز قفزات متسارعة نحو ثورات العلم ونتائجه، وتراكم المعرفة وتجددها، ومواكب التطوير والتحديث التى لا تعرف البطء ولا التوقف. ولا تنتظر الرفاق وهم ينظرون بمنظار الدهشة والانبهار، ويكتفون بالاستهلاك والاستيراد، وربما سوء الاستعمال أو حتى الجهل به.

تلك هى قضيتنا بشفافية وبمنأى عن مخادعة النفس، أو مراوغة الآخر، أو تزييف الوقائع، أو محاولة الانفلات منها بالمراوغة أو الهروب.

فى هذا السياق القاتم، وفى ظل الحصار الإنسانى الكئيب تتعالى أصواتنا على استحياء بمنطق العروبة والإفريقية أمام مشاهد تدعو إلى التعجب والسخرية من كل شيء : فهذا أستاذ جامعى جزائرى عربى يلقى محاضرة على أرض عربية تتهم بالتعصب للقومية، وبين يدى جمهور عربي، ووسائل إعلام عربية، ويتناول ـ وهذا هو موطن السخرية الدرامية ـ قضية الهوية العربية الإسلامية ليلقى المحاضرة بالفرنسية، ويتلقاها الجمهور فى ترجمة فورية بالعربية، فهل هانت علينا أنفسنا إلى هذا الحد المريب الذى نشرح فيه قضيتنا وهويتنا وكياننا وشخصيتنا بالفرنسية.

ومن الجميل أن الشعب الفرنسى من أكثر شعوب الأرض غيرة على لغته وهويته، بدليل ما صدر منذ أيام من المسارعة إلى إنقاذ لغة "موليير" من الضعف اللغوى على ألسنة الشباب، بتغيير فورى لمناهج اللغة الفرنسية، والتركيز على الإملاء والقواعد والإنشاء .. فأى عبقرية هذه فى أمة تحترم لغتها باعتبارها الأصل والمدخل عبر تاريخها، وإلى بقائها الشرعي، ومستقبلها فى زحام تيار العولمة. ومن الأجمل أن يأتينا سفير جمهورية الصين الشعبية لافتتاح أسبوع ثقافى صينى بالجامعة، فيأبى الرجل إلا أن يتحدث إما بالصينية أو بالعربية، وليس بالإنجليزية، رجل

يحترم نفسه ووطنه ولغته احترامه للأرض، التى أقام عليها معرضًا لثقافته وفكره للتعريف بإنجازات شعب عظيم وتاريخ عريق.

ويدخل فى السياق نفسه، مستشار قازاقستان حين يأتى للحوار حول إلحاق بعض طلاب بلده بالجامعة، وإجراء معادلة لهم فتحييه بالإنجليزية فيرد التحية بالعربية، راجيًا أن تتسع دائرة الحوار بها لأصالتها وعراقتها ووجوب عالميتها، فإذا به يتحدث العربية ربما أفضل من أهلها ! ويمتد الموقف إلى الأساتذة الإيطاليين فى سياق مؤتمر رابطة الجامعات الإسلامية، وهم يتحدثون عن قضايا الشباب فيتشبثون بالإيطالية التى تتم ترجمتها الفورية إلى العربية، رغم معرفتهم بالإنجليزية لغة وسيطة، ولكنهم شاءوا أن يحافظوا على مقومات الهوية !!

أن نلجأ إلى استخدام الإنجليزية لغة رسمية لمؤتمرات فى الطب أو الكيمياء أو الصيدلة، أو غيرها من علوم تخاذلنا أمامها بعد أن كان أسلافنا فيها روادًا شوامخ تنقل عنهم الدنيا فى عصر النهضة العربية والظلام الأوربي، فهذا قد يُبرر؛ لأننا نستورد النظريات والنتائج والأفكار وحصاد التكنولوجيا ونكتفى منه بالاستهلاك فحسب.

أما أن تصبح الإنجليزية هى لغة الحديث من باب التزيُّد حول قضايا المجتمع العربي، أو حقوق الإنسان أو حرية التعبير، أو مشكلات المجتمع الإسلامي، أو هموم المجتمع الإفريقي، فهذا أمر آخر يعنى ـ بجلاء ـ أننا أسرفنا على أنفسنا حين احتقرنا لغتنا لمجرد إرضاء حفنة من الحضور الأجنبى يمكن أن نترجم له بلغته، لا أن نترجم لأنفسنا إلى لغتنا ! وهو ما يعنى أيضًا استمرار مسيرة الضعف والهوان التى نعانيها على الأصعدة الثقافية حين تتبارى فى استخدام مفردات وجمل يعرفها المبتدئون فى تعلم اللغة، ولا ضرورة للتعامل من خلالها إلا للوجاهة أمام الآخر بأننا نحتقر أنفسنا، وننفر من الأداء بلغتنا التى كانت ولا تزال من أغنى لغات الأرض، وأغلاها، وأبقاها تاريخًا، وأقدرها على التطور والتجديد ومواكبة حركة العلم والمعرفة شريطة أن نكون منتجين للعلم وصناعًا للمعرفة !

إن البحث عن طوق النجاة فى هذا العالم المتغير الذى بات يرفض الكيانات الصغيرة ويبحث عن القوة فى التكتل يتطلب تحويل عنوان هذا الملتقى إلى صيغ مفعلة، وبرامج قلة للتنفيذ قبل انتهاء تاريخ الصلاحية، ومشروعات منجزة على أرض الواقع العربى الإفريقى بدلًا من التوقف عند حد القول والشعار، أو التوصيات والنتائج التى تصدر عن حماس وانفعال، وبزوالهما ننسى همومنا وشجوننا العربية والإفريقية، وننخرط فى الاستجابة لإملاءات الآخر، ونرتضى العيش فى سوق التبعية، واللهاث وراء كل ما يقدمه لنا من فتات !!

إن التحدى الحقيقى فى منطق العروبة والإفريقية أن تراجع هذه الأمة نفسها من باب نقد الذات وليس (الجلد)، وأن تبادر إلى المصارحة بما انتهى إليه أمرها من تدهور وتخلف فى عصر الانفجار المعرفى والعلمي، وأن تدرك حقيقة حديث العالم وقسمته بين شمال وجنوب، بين متقدم ومتخلف، بين قوى وضعيف، لعلها تأخذ بزمام المبادرة اقتداء بالتجربة اليابانية أو الصينية أو الهندية التى بدأت من نقطة الصفر لتنتهى إلى اللحاق بموكب الأقوياء بمنطق العلم والمعرفة سعيًا إلى القمة !

ويزداد التحدى وضوحًا مع مطلب التلاقى والمصارحة، لاسيما فى إطار ما تمتلكه الأمة العربية والإفريقية من مسلمات التاريخ والجغرافيا والأرض والفكر والثقافة، وحتى ما بين اللقاءات الإفريقية والعربية من وشائج القربى التى صنعها الأصل، والجوار، ومواجهة الأزمات، ووحدة الهدف، والإيمان بتقارب المنهج والمصير، بعيدًا عن منطق الكراهية والعدوان، أو لغة الاحتلال والقهر التى يمارسها أدعياء الحضارة ـ وهم أعداؤها ـ تحت مظلة استعراض القوة تجاهلًا لمعطيات حركة التاريخ، التى أذلت كثيرًا من الطغاة فبادوا وانتهت أيامهم.

المدخل الآمن إلى العروبية والإفريقية هو التكتل والتقارب فى لغة بسيطة أساسها التكامل والتكافل والتعاون ورسم استراتيجية يعرفها جيدًا ذوو الاختصاص فى

مشروع التنمية والسلام، فى ظل منظومة العمل العربى الإفريقى التى يرسمها السياسيون والاقتصاديون بكل اقتدار.

والمدخل الصحيح إلى العربية والإفريقية أن نعيد قراءة الواقع بشكل مختلف يسمح بإعادة صياغته، وإعادة استكشاف طبائع العلاقات بين الأشياء، فهل آن لنا ذلك عبر حوار جاد ومناقشات أكثر جدية حول القضية ؟!

obeikandl.com

٧

أسئلة حائرة .. ومازالت الإجابة مفتوحة !

على مدار أربعة أيام هى عمر مؤتمر العرب بين ثقافة التغيير وتغيير الثقافة بين قاعات الوزراء والسفراء بقصر المؤتمرات بمدينة مراكش المغربية العريقة دار حوار المفكرين العرب والأجانب ، وانطلق صوت العقل وصقل المعرفة محكوما بدقة المنهج والموضوعية من جانب، وفى موازاته صوت الانفعال والوجدان معبِّرًا عن تداعيات الشجون وأصداء الهموم العربية من جانب آخر. وبين الجانبين كلَيْهما ترددت التساؤلات، ومعها ظهرت بعض الإجابات والتفسيرات كاشفة عن اجتهادات وتأملات؛ ولكن الساحة تظل واسعة للبحث عن إجابات أخرى، تظل معلقة بجهود مؤسسة الفكر العربى فى منطلقاتها الكبرى عبر فضاءات الثقافة التى تتحول من خلالها إلى مرصد آمن لقضايا الفكر المرحلي، انطلاقا من دراسة وتحليل وضع الإنسان العربى المأزوم، إلى التجاوب مع آلامه وطموحاته نحو رؤية أكثر وضوحًا فى تجليات قراءة الواقع ورؤية المستقبل بمنأى عن الضبابية أو التعصُّب، أو الانكماش والتقوقع، أو التسطيح والترخُّص، أو الانكفاء على الذات والتغافل عما يدور حولها من متغير.

فى سياق المؤتمر تقاربت المسافات، واتسعت مساحات الفكر، وظهرت رحابة العقل العربى حين يتجه إلى الآخر تفاعلًا معه، تأثرًا به وتأثيرًا فيه، فكانت الحوارات العلمية، وظلت التساؤلات قابلة للطرح والبحث عن إجابات شافية حول محاور متعددة منها: إلى أى حد يمكن إعادة النظر فى إحياء موروثنا الثقافى بين

الحوار والتجديد والابتكار والإضافة، باعتباره ركنًا قويًّا من أركان الأمة، وأصلًا من أصول تاريخها وشخصيتها، يستحق التوقُّف والتأمل والمراجعة عبر منهجية آمنة، وقراءات عصرية متجددة ؟ !!.

وإلى أى مدى يمكن تحديد الفواصل الدقيقة بين المجتمع الإنسانى حين يندفع عبر قوافل التنمية والرخاء، وبينه حين يتوقف عند منطق الخصومة والعدوان، أو عند دوائر السيطرة والطغيان بما يعوق الضعفاء عن الاشتراك فى الركب، أو تحقيق الإنجاز، أو التفرغ للإسهام فى منظومة تقدم الإنسان؟!!.

إلى أى درجة يمكننا الإفادة من تجارب الأمة وتجارب الآخرين، حين نضعها فى دائرة الاختبار والتقويم، وتصبح موضعا للعظة والابتكار وتراكم الفكر، والإبانة عن مسارات الإصلاح، لاسيما من قراءة تحولات الإعلام العربى - مثلًا - من السالب إلى الموجب فى سياق مقارنته بين واقعه فى نكسة يونيو واستراتيجية المفاجأة والتخطيط فى نصر أكتوبر؟ وقياسًا على تجربة الأمة تنطلق قراءاتنا لتجارب الأمم، التى أحرزت نجاحات وتقدمًا فى حقول المعرفة وثورات التكنولوجيا والتقدم العلمي، على طريقة التجربة اليابانية والصينية وأشباههما ؟!!.

إلى أى السبل نتجه فى مساق الشراكة الحضارية الجادة التى تؤمن بالمشترك الإنسانى فى الأجناس والأعراق والأديان، دون انفصام مرجعى أو انشطار ذاتى بقدر الانطلاق من منظومة الحوار بدلا من التصادمية والصراع؛ حوار الأديان حتى تحترم الثوابت والمقدسات، وحوار الشعوب حين يلتقى فى فكرها التحديث مع التأصيل، احترام الموروث وفهم القيم المستحدثة، تعزيز الهوية والكيان وتجنب خلط الأوراق وإرباك المصطلحات، وتداخل المفاهيم وضبابية الرؤى وفوضى الأحكام؟ !!.

وإلى أى الأهداف وعندها نتوقف فى مراحل المساءلة والمراجعة الصادقة حين تنطلق من إمكانية نقد الذات مع الثقة فيها بعيدًا عن التهويل أو التهوين، وبمنأى

عن النرجسية والاستعلاء أو الاستخفاف والاستهانة، وبمعزل عن مواجهة الصدمة وتحدى الواقع فى ظلال التشبث بالهوية، دون انزعاج من الانخراط فى تيار التغيير والتحول المرحل؛ى طبقًا لما هو متاح من الآليات والإمكانيات والاستعـداد الراهن ؟ !!.

بمثل هذه الأسئلة ونظائرها يظل حقل المراجعة رحبًا، وتظل الإضافات ممكنة، إذا امتلكنا من منظومة القيم ما يبيح لنا احترام مصادر الإصلاح وتقدير ضروراتها دون انحياز إلا للحق وسلامة المرجعية، ودون اندفاع فى اتجاهات الشطط والتباهى من جانب، أو حالات التماهى مع الغير من جانب ثان .. ومثل هذه الأسئلة يظل مجالًا مفتوحًا لمئات الحوارات المنهجية، التى نحتاج فيها إلى تأصيل الهوية فى سياق المتغير والمعاصر.

obeikandl.com